ابن أبي أصَيْبُعة ومُصَنفهُ في طبقَات الأطبّاء

محمد شحادة كرزون

يوضح ابن أبي أصيبعة في مقدمة كتابه الباعث الذي حفزه على أن يشرع في تاليف مصنفه طبقات الأطباء وهو الافتقار الى مرجع شامل في معرفة طبقات الأطباء ، وكذلك يوضح خطته في التأليف ، ألا وهي أن يذكر المتميزين من أرباب هذه الصناعة (الطب) قديماً وحديثاً ، وتصنيفهم طبقات وفق الزمان والمكان ، مع ايراد نبذ من أقوالهم ونوادرهم ومحاوراتهم وذكر شيء من أسماء كتبهم ، ثم يحدثنا عن تقسيمه الكتاب الى أبواب يعددها فتصل الى خمسة عشر باباً : أولها في كيفية وجود صناعة الطب وحدوثها وآخرها طبقات المشهورين من أطباء الشام .

في ظني أن ما أفصح عنه من باعث ليس هو الوحيد وراء هذا النتاج القيم وانما وراءه ثقافة ممتازة عميقة توفرت للرجل ، وفكر موسوعي واضح ، يدفع صاحبه دفعاً الى التعبير عنه ، والابانة عن مكنات صاحبه الفذة والمنوعة ، فهو مطالع ممتاز نهم ، يدل على ذلك عدد جم وفير من المراجع تهيأ بين يدي عمله ، وعدد أكبر اطلع عليه ، فدفعه الى البحث والاستقصاء ، فالتصنيف ، مع ميل في طبعه لهذا الأمر ، ثم ان الرجل كان جمّاعاً للكتب كأكثر أعلام عصره ، وقد صرح بذلك في ترجمته لحنين حيث يقول : « .. وجدت من هذه الكتب كتباً كثيرة ، وكثير منها اقتنيته وهي مكتوبة ، مولد الكوفي ، بخط الأزرق ، كاتب حنين .. » ومثل هذه الملاحظة ترد في غير واحدة من الترجمات التي عملها .

ثم ان عصر الرجل – العصر الثقافي أعني – كان عصر الموسوعات : نجزت – قبله

وبعده – مجموعات هائلة من المصنفات العربية في سائر العلوم .. وكان قد تهيأ في نتاج الثقافة العربية حتى ذلك الوقت ، مصنفات في الطبقات خاصة ، في شتى العلوم من طبقات المحدثين الى طبقات القراء ، طبقات الأدباء والشعراء ، طبقات النحويين ، وطبقات الأطباء ، وإذن فلم يكن مصنف ابن أبي أصيبعة فريداً في بابه ولا في لونه فلقد ألّف غيره في هذا المجال ، وان كان مصنفه هو يتميز عنها بأشياء نذكرها في موضعها من هذه الدراسة .

أما ناسخ الكتاب فقد ذكر اسمه في معرض ترجمته لأمين الدولة وهو الشريف الناسخ شمس الدين محمد الحسيني ، وذكر أنه كثيراً ما كان ينسخ لهم الكتب (وأغلب الظن أن الضمير عائد هنا عليه وعلى أبيه وعمه الذين يشكلون أسرة مثقفة جيدة الثقافة ، احترف أفرادها الطب وكان لكل واحد منهم في مجالها شأن غير قليل) واستفادت هذه الأسرة من اقترابها من الأسرة الأيوبية فائدة جليلة كان لها أثرها الخطير في مستقبلهم الثقافي العلمي ، مما أتاح لهم التعلم ومصاحبة رجال الدولة وأعيانها .

مدح ابن أبي أصيبعة خط ناسخه الشريف المذكور وأشاد باتقانه العربية وأخبرنا عن قطع الكتاب (ربع البغدادي) وعن أجزائه (أربعة أجزاء) وذكر تاريخ الفراغ من نسخه (أوائل سنة ثلاث واربعين وستماية) وعن مكان النسخ (دمشق) .

مما سبق يتضح أن هذا الكتاب كان موجوداً قبل أن يهدى الى أمين الدولة سنة ثلاث وأربعين وتتبين ذلك فوق هذا من عدة تلميحات واشارات وردت تؤكد هذا الوجود: ان رغبة امين الدولة ان تضم خزانته هذا المصنف الذي كثر اطراؤه تدل على أنه يستهدي شيئاً موجوداً سمع الثناء عليه من الآخرين ثم انه قد تقدم أن المؤلف قد تلقى عتباً من أستاذه الجيلي قاضي القضاة حين اطلع على الكتاب فلم يجد ترجمته مدرجة في التراجم ، ومن المؤكد أن الملاحظة هذه تنصب على اطلاع الجيلي على نسخة سابقة على النسخة التي حملت الى أمين الدولة ، لأن النسخة الأخيرة كانت تحوي ترجمة للجيلي .. ونعتقد أن الكتاب قد مرَّ بتطورات كانت تطرأ فيها عليه زيادة في كل مرة ، ففي المرة الأولى التي اطلع فيها رفيع الدين الجيلي على نسخة من هذا الكتاب كانت خلواً من ترجمة له فعتب عليه ، وحين أهدي الى أمين الدولة ،كانت النسخة المهداة تحتوي على ترجمة للجيلي ، ثم انه يترجم لأمين الدولة ويذكر تاريخ وفاته (!!) كيف يهدى الكتاب الى رجل دولة استهداه ثم يسجل في ترجمة المهدى اليه تاريخ وفاته؟! والتفسير المعقول لهذا الاضطراب

هو ما قدمنا من أن هذا الكتاب قد مرّ بتطورات كان في كل واحدة منها يزاد عليه ، والا فكيف تهيأ له أن يذكر تاريخ وفاته (٦٤٨ هـ) ويسهب في ذكر هذه الوفاة وما حصل له من المحن الى حين شنقه في القلعة بالقاهرة نتيجة الصراع المحموم الذي اشتد بين أفراد الأسرة الأيوبية في مصر والشام .. ثم ان اضافة ثالثة قد حصلت على هذا المصنف بعد سنة ٦٤٨ هـ وهي تخص الترجمات التي ذكرت وفاة أصحابها بعد هذه السنة مثل ترجمة نجم الدين المنفاخ (٦٥٢ هـ) وترجمة بدرالدين ابن قاضي بعلبك . ومن المؤكد اذن أن هؤلاء لم تكن ترجماتهم مذكورة في النسخة المهداة الى خزانة أمين الدولة ، أو - على الأقل - لم يكن تاريخ وفاتهم مثبتاً لأنهم كانوا أحياء عند الاهداء (في سنة ٦٤٣ هـ) ..

وأشد من ذلك اضطراباً أن في الكتاب ترجمات لأناس كانت وفاتهم بعد وفاة المؤلف - إذا سلمنا أن وفاته كانت فعلاً في سنة (٦٦٨ هـ) - وهما ترجمتان واحدة ليعقوب السامري وكانت وفاته سنة (٦٨١ هـ) والثانية لتلميذه ابن القف ووفاته سنة (٦٨٥ هـ) وحل هذا الاضطراب المشكل هنا - كما تقدم - بالأخذ بأحد افتراضين وهما : اما أن تكون وفاة ابن أبي أصيبعة ليست في عام ٦٦٨ هـ وانما في عام ٦٨٥ هـ وما بعد حتى يمكن القول أنه ترجم لاثنين مات آخرهما في عام ٦٨٥ هـ ، أو أن نقول ان زيادة رابعة قد وقعت على هذا المصنف فأضافت ترجمة هذين العلمين ونحن نرجح الافتراض الأول ونميل الى الشك في وفاة ابن أبي أصيبعة لأنه حين يترجم لتلميذه ابن القف يقول : لازمني .. و .. قرأ عليّ وأمثال هذه العبارات مما يرجح أنه هو الذي يكتب الترجمة وبالتالي فالترجمة ليست من اضافات النسّاخ .

وفي تاريخ النسخ والإهداء اضطراب اذا ما قورن بوفاة الجيلي ، فالفراغ من النسخ كما ورد في ترجمة أمين الدولة من قول ابن أبي أصيبعة كان في أوائل سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وحمله الجيلي الى المهدى اليه وفي ترجمة الجيلي (ص ٦٢٧) يذكر تاريخ وفاته على انه عام ٦٤١ هـ وهذا غير معقول . ان وفاة الجيلي كانت بعد إهداء الكتاب وخروج المهدى اليه من دمشق، وذلك قد كان في سنة (٦٤٣ هـ) كما هو في قول ابن أبي أصيبعة وكما هو ثابت في التاريخ[1] .

لقد حظي الكتاب باهتمام وتقريظ أعلام عصر المؤلف ، ففضلاً عن اهتمام أمين الدولة، وحرصه أن يُخَصّ بنسخة من الكتاب تكون في خزانته ، يجزي عليها المال والإحسان والثناء

واضافة الى عتب الجيلي وحرصه أن يكون اسمه بين الأعلام الذين حوتهم النسخة ، فاننا نقع على مديح له في عبارة الوزير الصاحب ابن مطروح وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب حين يقول له : « ما سبقك الى تأليف كتابك في طبقات الأطباء أحد » وبغض النظر عما في العبارة من حكم قابل للنقاش فانه تقريظ للكتاب واشادة بأهميته ، وكذلك فاننا نجد شيئاً مماثلاً في ترجمة رشيد الدين أبي حليقة حيث يقول[٢] : « ولما اجتمعت بالحكيم رشيد الدين أبي حليقة وكان قد بلغه أنني ذكرت الأطباء المشهورين من أهله ووصفت علمهم وفضلهم فتشكر مني » .

وأما مهذب الدين سعيد بن أبي حليقة فيكتب اليه في سنة سبع وستين وستماية وكان أبو سعيد اذ ذاك في المعسكر المنصور الظاهري يقول : « انه وجد بمصر نسخة من هذا الكتاب الذي ألفته في طبقات الأطباء، وقد اقتناها وصارت في جملة الكتب التي حواها ، وبالغ في الوصف الذي يدل على كرم أخلاقه وطيب أعرافه » . وكذلك قرّظ الكتاب شعراً ، صديقه عزالدين السويدي وأنشده قصيدة منها :

« موفق الدين بلغت المنى	ونلت أعلى الرتب الفاخره »
« حملت في التاريخ من قد مضى	وان غدت أعظمه ناخره »
« فخصك الله باحسانه	في هذه الدنيا وفي الآخره »

ما هي المصادر التي اعتمدها ابن أبي أصيبعة في تصنيفه القيم هذا ؟ ان المعلومات الثرة الغزيرة التي احتواها الكتاب استقاها المؤلف من مصادر عدة هي النقول والمشافهات والمعاينات والمشاهدات ، وفي كل واحد من هذه المصادر نلحظ الجهد العظيم في التحصيل والاطلاع والتقييد . فهو حريص أشد الحرص على أن يذكر لك من أين استقى مادته ، ففي مصادره المكتوبة نجد أنه قد استفاد من ما ينوف عن اثنين وخمسين مرجعاً مكتوباً[٣] ، تشكل خزانة غنية جداً في الطب وعلومه المساعدة ، وتاريخ الصنعة ، وتراجم أعلامها وأسماء كتبهم ومصنفاتهم ، هذا غير نقوله مما لم يصرح بذكر الكتاب اسماً وانما ذكر المؤلف كنقوله التي أخذها عن فثيون الترجمان ، فهو لم يصرح باسم الكتاب الذي نقل عنه ولم يدرج في ترجمته سوى كتاب واحد وهو ليس من الكتب التي تتحدث عن تاريخ الطب والأطباء .. أو قوله : نقلت من رسائل ابن الصبيرفي[٤] أو النقول التي قدم لها بقوله :



« نقلت من بعض التواريخ » وهي عبارة ترد في كثير من المواضع •• أو قوله : « وجدت في بعض الكتب » أو قوله « وفي التاريخ•• »أو : « نقلت من خط بعض المشايخ •• » •

يلاحظ على هذه المصادر المكتوبة أنها تقع في ثلاثة أقسام :

١ ـ منها ما يتعلق بالعلوم الطبية المحضة ، أو تاريخ الطب •

٢ ـ ومنها ما يتعلق بالعلوم الحكمية ،والعلوم المساعدة لصناعة الطب •

٣ ـ ومنها ما يتعلق بالتاريخ العام وتاريخ الأدب •

والمشافهات كثيرة ، ومن الطبيعي أنه استقاها من أعلام عصره : شيوخه وزملائه في العمل وأصحابه من المثقفين من أصحاب المناصب الادارية قضاءً ووزارة من المهتمين بشؤون الثقافة العامة والطب وتاريخه والأدب وتاريخه والتاريخ العام والسياسي منه بشكل خاص ، وبلغت عدة من شافههم وروى أطرافاً من أحاديثهم أربعة وأربعين علماً[٥] هم صفوة أعلام الثقافة في عصره خاصة في العلوم الطبية وتاريخها ، منهم الطبيب والنحوي والكاتب والعواد والناسخ والكحال والوزير والكتبي، هذا سوى من لم يذكر أسماءهم صراحة بل أجمل القول :

••• : « حدثني بعض الأطباء[٦] » أو قوله « حدثني بعض المصريين[٧] » ، وكذلك قوله : « حدثني بعض فقهاء العجم[٨] » أو « حدثني أهالي حلب[٩] » •

وتشكل المشاهدات المصدر الثالث لهذا الكتاب ، وقد تمت هذه المشاهدات في أربعة مواضع هي : دمشق وصرخد والمعسكر المعظمي والقاهرة ، ولا نعلم له أماكن غير هذه أقام فيها أو دوّن شيئاً من مشاهداته فيها سواها ،وهذه المشاهدات غنية بالمعلومات الطبية والنكات والنوادر وطرائق التدريب ، ومايكون بين الأطباء من تعاون أو بغض أو تحاسد ، ومعاتبات ، وأحوال ، مثلها في ذلك مثل المصدرين السابقين: النقولات والمشافهات•

في دمشق عاش منذ مولده والى أن انتظم بالمعسكر المعظمي ، ثم عاد الى دمشق وارتحل الى القاهرة، وكان هناك سنوات اثنتين وثلاثين وثلاث وثلاثين وبعدها التحق بصاحب صرخد سنة أربع وثلاثين ، وهذا لا يعني انقطاعه عن دمشق ففيها أهله وأصحابه ، وهي ملعب طفولته ، ومغنى شبابه ، كان يتردد عليها ،وخاصة سنة ٦٤٣ هـ حين اصطحب مسودات كتابه ليهيىء نسخة منها يهديها الى أمين الدولة كما تقدم الخبر بذلك •



فمن مشاهداته ما رواه من نادرة للأسعد المحلي يعقوب بن اسحق صديق عمه رشيد الدين حين عاد بعض نساء أهله (أهل المؤلف) وكان عرض لهـا مرض تطاول فأعيى ، فأعطـاها علاجاً ، أقراصاً قال انه ركبهـا خاصة لهـذا المرض ومؤدى الخبر هاهنا الإشادة ببراعته في (التشخيص) ودقتـه في العلاج اللازم (الدواء الذي ركّبه) فلما تناولتها وفق ما رتب شفيت (حسن تنظيم العلاج) • أو ما شـاهده مـن حسن تأتي الشـيخ السديد ابن أبي البيـان لمعرفة الأمراض وتحقيقهـا (التشخيص) وذكر مداواتها ، وبراعته في تركيب الأدوية بمقاديرها وأوزانها حتى للأمراض النادرة مـن سفوفات وأقراص وأشربة •

وكذا ما شاهده مـن ذكاء ابن البيطار وفطنته ودرايته بالنبات والأعشاب وما رآه من حسن تأتي الحكيم عمران في المعالجة وتحققه للأمراض مما يثير العجب ، من ذلك معالجتـه مفلوجـاً حتى برىء في البيمارستان الكبـير بدمشق ووصفه للمزاوير لمرضاه حسب ميولهم ومعالجته أمراضاً كثيرة مزمنة قد أعيى شفاؤها فشفى الحكيم أصحابها بدوائه وعلاجه[11] •

وما شاهده من ملح أستاذه مهذب الدين في صناعة الطب وغرائبـه في المداواة وتحققه للأمراض والمعالجة فقـد عالج مريضاً بمرض الجنون السبعي باضافة مقادير من الأفيون الى ماء الشعير الذي كان يُسقاه فشفي ، أو كشفه لطلابه حالة مريض نبضـه ضعيف في اليمنى قوي في اليسرى ، وهي حالة نادرة في النـاس مما يشتبه على كثير مـن الأطبـاء فيؤولون ضعف النبض عندهم الى مرض وما هو كذلك•

وما عاينه مـن كيفيـة استدلال الحكيم رضي الدين الرحبي على الأمراض وما يصفـه بموجب ذلك للمرضى ، وذلك في البيمارستان النوري الكبير بدمشـق •

وما رآه من براعة والده في معالجة العين الميؤوس منها أو مما تكون مداواتها بالحديد (الجراحة) يبرئها بالدواء ويستغني عن الحديد•

وما شاهده وسمعه من اطراء علم الدين قيصر لعمه رشيد الدين لشدة ذكائه واستيعابه، وقدرته على التحصيل ، حيث كان يدرس عليه علم الحيـاة (علم البحث عـن أحوال الأجرام السماوية) فأنجز منها بين يديه في نحـو شهر ما يتعلمه غيره في خمس سنين !!

الا أن معظم مشاهداته وأهمها وأوفرها كان قد اورده في كتابه « التجارب والفوائد » يتبع ابن أبي أصيبعة في الترجمة أسلوباً نمطياً واحداً وقد تمتد الترجمة على عـدة صفحات



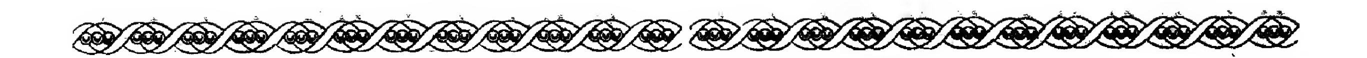
تتراوح بين العشرة الواحدة الى العشرات الأربع الا أن ترجمات أخرى قد تتضاءل الى أن تغدو من بضعة اسطر •

يتناول في الترجمة الواحدة جوانب كثيرة من حياة المترجم له تتضمن كلاماً كلياً حول أخباره – مكانته وفضله ، تعمقه الصنعة –عصره ومعاصروه ، موطنه ومسكنه ، تحصيله ومعلموه ، ثقافته ، نبذ من آرائه ، صفته وأخلاقه ، عاداته ونوادره ، علاقاته بأصحابه وأعلام عصره ممن كان في خدمتهم أو خدم معهم ، والأماكن التي خدم فيها ، ثم أخيراً مصنفاته واتناجه لم يلتزم ذكر الاسم كاملاً (الاسم الكنية اللقب) ولا تاريخ المولد والوفاة، بعض العناصر المتقدم ذكرها قد ترد في بعض الترجمات كاملة ، وقد يغيب عنصر أو عناصر في ترجمات بعضهم الآخر ، وقد يجري التركيز على عنصر فيتوسع فيه عند واحد ، دون سائر العناصر ولا يخلو الأمر من بعض الاستطرادات والخواطر والشعر •

وهو محقق لا يقبل الكلام على علاته ، بل يناقش ويثبت وينفي ، ويعارض ويقابل ويحتاط ، ويتحفظ ويفحص ، وعلى الرغم من اعتماده أساساً على المنقول فانه شديد الانتباه الى ما يقع أحياناً من تناقض في نقل خبر من جهتين مختلفتين ويرد هذا الى النساخ أحياناً[١٢]•

أما انشاؤه فمتوسط ، ولا تخلو عبارته –أحياناً– من لفظ من الدخيل : جامكية (المنح السلطانية) دستور (الوصفة) أقرباذين (كتاب الأدوية) بيمارستان (المستشفى) علة (الورشكين) الخ ••• مما كان شائعاً استعماله في التعامل ،وفي انشاء زمانه ومصنفات عصره ، وقد يستعمل جموعاً خاصة (الآدر ج دار)وقد يستعمل ألفاظاً ذات مدلول خاص كاستعمال لفظة الدار بمعنى أهل الدار ، أفراد الأسرة وعلى الخصوص الزوجة كما هو شائع في بعض اللغات المحكية في ريف بلاد الشام ومصر وخاصة الصعيد ،وقد ترد ألفاظ خرج بها عن معناها الأصلي الى معنى مستحدث خَدَمَ : بمعنى الاحترام أبدى الاحترام والطاعة ، التحية الخاصة بالسلاطين الخ •• وقد يستعمل ألفاظاً يبلغ بها الخروج عن معناها الأصلي الى أسلوب العاميات :(توجديه : بمعنى تظهرني له) ،(وكان يرى لها كثيراً) بمعنى يستمع الى رأيها ويأخذ بمشورتها وقد تصل بعض عباراته الى حد الركاكة[١٣] بل قد يقع في الخطأ النحوي[١٤] •

نشر الكتاب لأول مرة الألماني أوغست موللر (August Muller) في العام (١٢٩٩ هـ الموافق ١٨٨٢ م) في القاهرة ثم نشر مقدمة له في كونزنبرغ (١٨٨٤ م) وهذا خلاف ما ذكره الناشر في بيروت من أن نشر موللر للكتاب كان في عام ١٨٨٤ م •



ثم طبع في مصر عام ١٣٢٩ هـ نقلاً عن طبعة موللر .

ثم نشر في بيروت عام ١٩٦٥ بدار مكتبة الحياة .

ويشار الى طبعة أخرى في بيروت عام ١٩٦٥ بمطبعة الاقبال ، ولسنا نعلم ما اذا كانت طبعتا بيروت عام ١٩٦٥ طبعة واحدة حيث لم نقع على هذه الأخيرة (لمطبعة الاقبال) وكذلك فان دار مكتبة الحياة لم تشر الى المطبعة التي تم الطبع عليها مما يحمل على الشك أنهما طبعة واحدة .

كل الطبعات العربية التي تمت حتى الآن اعتمدت على الطبعة الأولى (طبعة موللر)، وفي دائرة المعارف وبروكلمان يشار الى طبعة موللر ويشار الى الجزء والصفحة منها . في مقدمة الكتاب لم يشر ابن أبي أصيبعة الى الأجزاء وانما ذكر الأبواب الخمسة عشر على حين أنه يذكر خلال ترجمته لأمين الدولة أنه أهدى اليه الكتاب أربعة أجزاء ، وعلى هذا فان موللر حين نشر الكتاب حافظ على الكتاب بأجزائه ، وطبعة بيروت خلت من هذا التقسيم وليس فيها ما يشير الى حدود الأجزاء ، فهي منشورة في مجلد واحد من القطع الكبير يقع في سبعماية واثنين وتسعين صفحة .

يبدأ الكتاب بعد صفحتي العنوان بترجمة لابن أبي أصيبعة ، والترجمة ليست دقيقة ولا وافية وتحتل الصفحتين ٥-٦ ولا تحمل اشارة الى منشئها ، ثم تأتي مقدمة ابن أبي أصيبعة لكتابه على الصفحات ٧-٩ ، ثم تبدأ مادة الكتاب بالباب الأول (ص ١١) وتنتهي المادة في نهاية الباب الخامس عشر وهو آخر الأبواب بترجمة ابن القف (ص٧٦٨) ولا تشتمل النهاية على ذكر الفراغ من النسخ واسم الناسخ ومكان النسخ على ما جرت عليه عادة الناسخين ، ثم يلي ذلك فهرس المواضيع (ص ٧٦٩-٧٧٦) وهو فهرس ناقص قليل الفائدة لأنه يكتفي بترقيم بدء الباب دون ترقيم صفحات كل علم من الأعلام في هذا الباب ، يلي ذلك الصفحات (٧٧٧-٧٩٢) وفيها فهرس للأعلام والأماكن ، سيىء الإعداد ، عديم الفائدة .

والكتاب من خلال هذه الطبعة مليء بالأخطاء عامر بالأوهام التي وقع فيها الناشر منها :

١ - كثيراً ما يقع خطأ في ترقيم الحاشية (انظر الصفحات ٤٠٨ و ١٩٤) .

٢ - يحيل الى حاشية غير موجودة أصلاً (انظر ص ٤٧٧) .



٣ – يخطىء في فهم معاني المفردات فيشرحها شرحاً خاطئاً نابعاً من سوء الفهم (ص ٣٠١) فلقد فهم معنى البذرقة على أنها التبذير على حين أنها تعني في السياق الذي وردت فيه معنى الخفارة[١٥] .

٤ – يخطىء في فهم الأماكن أسمائها ومواقعها[١٦] .

٥ – يخطىء في الأعلام فتحول عنده اسم تاج الدين بن الحسن الكندي النحوي الى النكدي النحوي[١٧] .

٦ – يخلط بين اثنين من أعلام الصحابة هما سعد بن عبادة (الجد الأكبر للمؤلف) ، وسعد بن معاذ (الجد الأكبر لصديقه السويدي)(ص ٧٣٦–٧٥٩) .

٧ – يخطىء في التاريخ فيقول عن وفاة نور الدين محمد انه توفي سنة أربع وخمسين وخمسماية ، ثم يقول انها في سنة تسع وستين وخمسماية والتاريخ الثاني هو الأصوب[١٨] . وكذلك قوله عن وصول رشيد الدين أبي حليقة الى القاهرة سنة تسع وخمسماية ، وهذا خطأ لأنه يذكر أنه ولد في سنة احدى وتسعين وخمسماية في قلعة جعبر .

٨ – لم يتحقق من تاريخ ولادة المؤلف(٦٠٠ أم ٥٩٥) ؟ كما لم يتحقق من تاريخ وفاته التي جعلها بحدود ٦٦٨ هـ على حين أننا نرى أن المؤلف ترجم لمن كانت وفاتهم بعد هذا التاريخ (٦٨١ هـ) وكذلك ترجمته لابن القف (٦٨٥ هـ)[١٩] .

أما عن الأخطاء المطبعية إملاءً ونحواً وتصحيفاً فحدّث ولا حرج فلقد عثرت على جملة منها بلغت عدتها نيفاً وخمسين[٢٠] .

توفرت لهذا المصنف الجليل من الأسباب ما جعلته من الأهمية بمكان ونذكر فيما يلي طائفة منها :

١ – احتوى على تراجم لحوالي أربعماية من أعلام الطب او من اشتغلوا بصناعته او بعلوم أخرى مساعدة ضرورية مكملة لهذه الصناعة .

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال وهو لماذا لم يترجم لمعاصره ابن القفطي مع أنه كثير النقل عنه ، ثم لماذا لم يترجم لمعاصره ابن النفيس (٦٠٧–٦٨٧) ولم ترد الاشارة اليه ولو في معرض الحديث عن آخرين كما هو حاصل أحياناً في ترجماته للبعض اذ انه يورد أطرافاً من أخبار من عاصر المترجم له من أعلام هذا الفن[٢١]. وهل يكفي هنا في تعليل افتقارنا



لترجمةابن النفيس أنها أغفلت لما كان يباشره من الجراحة جرياً على عادة العرب الذين كانوا ينظرون الى الجراحين (أو الجرائحيين باصطلاح تلك الحقبة) نظرة عدم ارتياح بله الاحترام بما يلحق عملهم بالجسم الانساني من تشويه مما لم يكونوا يستحلونه لدواع فقهية (كما ترى دائرة المعارف الاسلامية ؟!) واذا اطمأن البال الى مثل هذا التعليل الواهي فكيف نبرر ترجمته لمعاصره وتلميذه ابن القف الذي كان جرائحياً أيضاً وكان تلميذاً في الوقت نفسه لابن النفيس ؟.

٢ – حوى الكتاب نبذاً من كتب مفقودة ككتب (جالينوس) وقد وردت أخباره وآراؤه ونبذ صغيرة منقولة من كتبه في البابين الأول والثاني في المقام الأول ثم في سائر الأبواب حيثما عرضت .. ومثل ذلك كتب (حنين) مؤلفة أو مترجمة ، وكتب عبيدالله بن بختيشوع الذي كانت له منها نقولات غزيرة وخاصة ما تعلق منها بأخبار الطب والأطباء ، والنقل في العصر العباسي ، وكذا ابن جلجل والمبشر بن فاتك وأخبار الدخوار وغيرهم .

٣ – حوى الكتاب معلومات عن الطب الهندي واليوناني، وربط بين مدرسة الطب العربي الاسلامي التي يعود فضل انشائها الى المنصور والخلفاء من بعده وبين الأصول والمنابع التي استمدت منها النسغ فنما باسقاً في منبت عربي شديد التشوف الى كل ما هو علمي فنهل من تعاليمها وتقاليدها في منابعها المتاحة من مدرسة جنديسابور ومدرسة الاسكندرية والمدارس الأقدم لدى اليونان والهند[٢٢] .

٤ – أورد تفاصيل مفيدة وطريفة عن الحياة الاجتماعية في الوطن العربي والعالم الاسلامي منذ العصر الجاهلي وحتى السنة السابقة لوفاة المؤلف منها على سبيل المثال عادة حضور الحاسبين والمنجمين مجلس الطبيب حين يعود أحداً من رجال البلاط ، وابداؤهم الرأي قبولاً ومعارضة فيما اختاره الطبيب من ضروب العلاج ، ان شخصية الحاسب والمنجم في الحضارة القديمة والى عهد الخلفاء والسلاطين المسلمين تحتاج الى بحث مستقل ، فقد كانت هاتان الشخصيتان من خواص السلطان وموضع الرأي والمشورة في أموره الشخصية كالعلاج (ص ١٧٧–١٩٢) أو في الأمور العامة . أوَ ليس أصحاب الرواية والنجوم هم الذين نهوا المعتصم عن أن يباشر فتح عمورية لأن نجومهم قالت لهم ان الوقت المناسب لفتحها هو وقت نضج التين والعنب ،وهم من عناهم أبو تمام معرضاً :

« السيف أصدق أنباء من الكتب — في حدّه الحدّ بين الجد واللعب »
« أين الرواية بل أين النجوم وما — صاغوه من زخرف فيها ومن كذب »

فمـا الكتب التي عنـاها الطائي الا كتب المنجمـين ، وما الرواية الا ما يرويه هـؤلاء المنجمون والحاسبون عـن نجومهم ، ومؤدى هذا أن المنجم والحاسب كانا عظيمي المنزلة لدى السـلطان وكانا بسبب هـذا يحتلان مناصب اداريـة وتنفيـذية عاليـة في بلاطات الملوك والسلاطـين •

ومنهـا ما سنه الرشيد لبني العباس (وللناس تبعاً لهم) من عدم الجلوس على النمارق في المـآتم وانما على البسط (ص ٤٧٦) •

ومنها ما يكون مـن مكايد نساء البلاط وخدمهـم (ص ٤٠٥) وعـادة فحص البـول والاستدلال منها على المرض • وما وصفه من هيئـة الأطباء الذميين وبزتهم وهيئـة الأطباء المسـلمين وبزتهم وشاراتهم مما يميزهم عـن سائر أصحاب المهن الأخرى ، وذكره عادة أكل لحوم الخيل في دمشق زمانه (ص ٦١١) وذكره لمراسم فحص الأطباء وامتحانهم قبل مباشرتهم المهنة واجازتهم في ذلك (ص ٣٥٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨) • ومنها ما يورده مـن أن كتـابة الاختزال قديمة وكانت شائعة أمام جالينوس[٢٣] وغـير ذلك كثـير •

٥ — شكل مدونة كبيرة لأسماء مؤلفات الأطباء الذين ترجم لهـم وهذه قيمـة علمية عظيمة الفائدة وفرت بين أيدينا صوى وعلامات مهمة في طريق البحث وعلم المراجع وهو أمر لـه خطره في طريق البحث والتحقيق فالبعث الثقافي لكنوز آثارنا العلمية المتنوعة مما عـدّ مفقوداً بسبب ما ألم بالوطن العربي من كوارث مدمرة للحضارة في أثمن دعائمها ، ومن أبرز هذه الكوارث المدمرة الغزوان المغولي التتاري من الشرق والصليبي من الغرب ثم ما تلا فترة الضعف والتراجع أواخر عهد الدولة العثمانية من حرب سرية شنتها أوروبة على ما تبقى من موجود الخزائن العربيـة التي لم يصل اليهـا التدميران السابقان في بعض حواضر الوطـن العربي في حلب ودمشق والقـدس وبغـداد والقاهرة ، وامتـدت هـذه الحملة المسعورة والسرية والتي حللت نفسها مـن أي التـزام أخلاقي متسلحة (بميكافيلية) مطلقة امتـدت خلال فترة الانتدابات والاحتـلالات الفرنسية والبريطانية والايطاليـة فنهبت معظم ما تبقى مـن كنوز ثقافية وفكرية في هذه الحواضر •

لقد عني ابن أبي أصيبعة عنـد نهاية كل ترجمة أن يضع ثبتاً بأسماء مؤلفات الطبيب العَلَم المترجم له وأسماء مترجماته، ومساهماته العلمية المصنفة وقد يكون الطبيب صاحب أثر فريد أو أثرين أو بضعة آثار وقد يصل هذا الثبت لدى بعض غزيري الانتاج منهم الى بضع



مئات[٢٤] مما يثير الاعجاب حول قدرة هؤلاء الأفذاذ على العطاء والنشاط الى التأليف والتفرغ له .

ولا يكتفي الرجل بايراد أسماء المقالات والكتب الخاصة بصاحب الترجمة بل انه يلقي أحياناً على بعض منها اضاءات كاشفة حول الموضوع والمحتوى ولمن ألّف الأثر ، ولمن أهدي ويورد – أحياناً أخرى – محتوى الكتب الهامة بتفصيل مفيد ، وقد يبدي رأيه في نسبة أثر من هذه الآثار لغير صاحبه ويرجح رأياً على رأي وهي اضاءات مهمة للباحث وهي في دلالتها اشارات أصيلة الى أثر العرب في تأسيس علم المراجع وعلم أصول البحث ، ذلك الذي بدأت تدوّن قواعده الأساسية عند الشروع في ضبط الحديث، وتجعل هذا الكتاب واحداً من سلسلة كتب مهمة في التراجم كالفهرست ومعجم الأدباء وكتب الطبقات المختلفة وكشف الظنون وسلسلة ثمينة متصلة من مثيلاتها في هذا الباب ، ويحتل الكتاب الذي ندرسه – ههنا – موقعاً بارزاً بينها .

٦ – يعطي فكرة واضحة ووافية عن مدارس الطب وعن الأطباء المعلمين والمصنفين في عصره وفي العصور التي عاشها من ترجم لهم ويتحدث عن طرائق تعليمهم وتدريبهم لطلابهم وعن انشاء المستشفيات والانفاق عليها من قبل السلاطين والأمراء وبعض الأطباء المعلمين[٢٥].

ان الكلام على طرائق التعليم والتدريب والمعالجة وسير العمل في هذه المؤسسات الصحية التعليمية الكبرى يرد في كثير من صفحات هذا المصنف في معرض ذكره لأوضاع المترجم لهم من الأطباء المعلمين والمتعلمين وهي في مجملها لا تقل عما وصلت اليه طرائق التدريس والتدريب في المؤسسات المماثلة في عصرنا الحديث[٢٦] ،كذلك يورد شيئاً من نوادرهم ومعابثاتهم ومكايدهم وذكراً لبعض طرائقهم في التأليف المدعم بالوسائل المعينة من رسوم وصور .

٧ – يؤرخ لأسر طبية كاملة لعهده والعهود السابقة وبغض النظر عما تعنيه أن تدور مهنة الطب في أسر معينة كما هو الحال في أسرة المؤلف نفسه ، فهذا أمر طبيعي وفي سائر العصور ، الا أن تنظيمه لتراجم هؤلاء ضمن أسر مستقلة يعطيك فكرة عن حرص بعض المثقفين ممن كانوا قريباً من السلطان أو في طبقته الخاصة على هذه الامتيازات التي توفرها مهنة الطب ، اضافة الى أنها تتيح – وبصورة آلية تقريباً – لمن تتحقق له هذه الصلة بالسلطان عن طريق المهنة ، أن يصعد الى المناصب السياسية والادارية العليا ، وقد اضطرد ذلك منذ أيام المنصور والى العصر الأيوبي ، فمن الأسر التي أرخ لها ، أسرة أبي

الحكم وأسرة بختيشوع وأسرة الطيفوري ، وأسرة أبي سليمان داود بن أبي المنى ، وأسرة أبي الحكم عبيدالله بن المظفر وغيرهم كثير[٢٧] .

٨ – يحدثك عن مكانة الطبيب التي يحتلها في الهيئة الاجتماعية في تلك الأزمنة : حظوتهم لدى الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء ، وإفرادهم بمزايا لا تكون لغيرهم (ص ٥٨٩ – ٢٠١ – ٢٠٤) وعن اعتدادهم بأنفسم (ص ٧٢٩) ومشابهتهم الملوك والوزراء والأمراء في مساكنهم (ص ٦٥٢–٦٥٣) وعن ثرواتهم وعن رحمتهم مرضاهم من الفقراء ، وعن أزيائهم (ص ٦٧١–٧٥١–٦٥٤) المسلمين منهم والذميين ، عن ثقافاتهم ، مكايدهم ومعابثاتهم ودعاباتهم .

٩ – يورد نبذاً من فوائد طبية كان مغرماً بايرادها : كصفة تجميد الماء (ص ١٢٤)، والحصول على الثلج، وكمعالجة الطبيب جبرائيل لزبيدة من الفواق (أرعبها فزال ما بها من فواق) وابرائه محظية الرشيد التي تيبست يدها إثر تمطيها (بازعاجها بشدة الحياء ، ص ١٨٨) ، وكلجوء حكم الدمشقي الى قطع نزيف شرياني أعيا .

١٠ – يعد تاريخاً مكملاً لتواريخ كثيرة ألفت في ملوك وسلاطين وأمراء ووزراء الأسرة الأيوبية في مصر والشام .

كما يؤرخ لمعالم هامة في دمشق والقاهرة حاضرتي ملك الأيوبيين وفي القدس مساجدها وبيمارستاناتها وقلاعها ومدافنها وأبوابها وأحيائها .

١١ – ثم انه يعد أجل كتاب ألف في بابه ، قيّم عظيم الفائدة في تاريخ الطب العربي ويعد مصدراً اضافياً في مصادر التاريخ العام ،والتاريخ الأدبي حيث يمدنا بمعلومات كثيرة ذات صلة بالتاريخ العام وتاريخ الأدب والتصنيف،ولا يحتج لدفع هذه الميزة أن معظم ما أورده المؤلف في هذا الباب مذكور في مظانه التاريخية، اذ أن المؤرخ الذي يعتمد التوثيق والتدقيق والتحقيق لا يمكن أن يعرض عما ورد فيه من لمحات عظيمة الفائدة .

ان الحاجة ملحة وقد رأينا خطر هذا الكتاب وعظيم فائدته وما نجده من رداءة المتوفر من طبعاته – والتي اعتمدت أساساً على عمل (موللر) الذي مضى عليه زمن طويل – الحاجة ملحة الى أخذ هذا المصنف بالنشر العلمي الجيد يتوفر فيه تحقيق النص وخدمته وتيسير الرجوع اليه وجعله سهل المتناول بين أيدي الباحثين في تاريخ الطب العربي خاصة وتاريخ الحضارة بشكل عام .

□ هـوامش :

١ ـ كان ترسيم الجيلي في منصبه في عهد السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل الذي ملك دمشق سنة ٦٣٧ هـ وأخذت منه سنة ٦٤٣ هـ : (الأعلاق الخطيرة ج ٣ ص ٢٠٠ وقوت القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٧١ و ص ٣٨١) ٠

٢ ـ انظر ص ٥٩٦ ابن أبي أصيبعة ٠

٣ ـ تجد أسماءها في ثبت ملحق بهذه الدراسة : الملحق رقم ١ ٠

٤ ـ انظر ص ٥٠٢ ٠

٥ ـ تجد أسماءهم في ثبت ملحق بهذه الدراسة : الملحق رقم ٢ ٠

٦ ـ انظر ص ٤٩١ ٠

٧ ـ انظر ص ٤٦١ ٠

٨ ـ انظر ص ٦٤٢ ٠

٩ ـ انظر ص ٦٤٤ ٠

١٠ـ وربما كان فيها سنة احدى وثلاثين أيضا ولم تكن اقامته في القاهرة في هذه السنوات اقامة متصلة ، فهو قد كان مع أستاذه ابن البيطار العشاب في سنة ثلاث وثلاثين وستماية (ص ٨٥٣) ٠

١١ـ انظر ص ٦٠١ ـ ٦٩٧ ٠

١٢ـ يقول في ذلك : « وقد يكون سبب هذا الغلط من النساخ ويستمر حتى تحصل حجة يضل بها من لم يفحص عن حقائق الأمـور » ٠

١٣ـ انظر الصفحات ٥٦٨ ـ ٥٩١ ـ ٦٠٠ ـ ٦٠١ ـ ٦٤٣ ـ ٦٥٤ ـ ٦٥٨ ـ ٦٦٠ ـ ٦٢٨ ٠

١٤ـ انظر ص ٢٤ و ص ٧٠٠ ٠

١٥ـ انظر اللسان مادة بذرق ٠

١٦ـ انظر ص ١١٨ حيث يتحدث عن مسكن جالينوس وهو في سمرنا بالغرب من قرية والصواب بالقرب من قره ٠ وكذلك انظر ص ٤٥٤ حيث يقول عن وادي كنعان انـه على ما يعتقد (كذا) في لواء ديالي من العراق على حين أنه المكان الذي كسر فيه قطز ٠ التتار في فلسطين ٠ وانظر كذلك ص (٦٤٣) في ترجمته للسهروردي فيسمي المدرسة الحلاون بالمدرسة الجلاوية ٠

١٧ـ انظر صفحات ٦٣٧ ـ ٦٥٢ ـ ٦٩٢ ـ ٦٨٢ ـ ٧٢١ ٠

١٨ـ انظر على التوالي ص (٦٣٥) و (٦٣٧) ٠

١٩ـ انظر على التوالي ص (٦٦٧) و (٦٨٥) ٠

٢٠ـ وردت في ثبت خاص في نهاية الدراسة الملحق رقم ٣ ٠

٢١ـ ففي ترجمته لعمه رشيد الدين نجد أطرافا من أخباره هو وأخبار والده ، وفي ترجمته لأمين الدولة نجد أخبارا عن رفيع الدين الجيلي ، وفي أخبـار رفيـع الدين نجد أخبـارا عن السهروردي ٠٠ الخ ٠

٢٢ـ انظر الصفحات ٢٢٦ ـ ٥٤٧ ـ ٢٠٠ ـ ٣٠٥ ـ ٣٣٦ ٠

٢٣ـ انظر ص ١١٥ ٠

٢٤ـ بلغت قائمـة كتب ورسائل يعقـوب بن اسحق الكنـدي (٢٦٨) كتابا ورسالة وبلغت قائمة كتب الرازي ١٣١ ، بينما جاوزت كتب الشيخ الرئيس المائة ٠

٢٥ـ أمثال السلطان نور الدين محمود الذي انشا البيمارستان النوري الكبير ، والسلطان صـلاح الدين الذي انشـا البيمارستان الناصري في القاهرة ، وانشا البيمارستان العضدي ٠ وكذلك علي بن عيسى الجراح ، الوزير ، والدخوار (علي بن عبد الرحيم) الذي انشا المدرسـة الطبية المعروفة باسمه ورتب لها أوقافا محبوسة عليهـا ومن أجل الانفاق في شؤونها ٠

٢٦ـ انظر ص ٤١٦ في وصف مجلس درس الرازي و ٦٢٨ في وصف العمل في البيمارستان والمرور على المرضى وتفقد أحوالهم من قبل الطبيب الشيخ ٠

٢٧ـ انظر على التوالي الصفحات ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٦١٢ ، ٥٢٠ ٠

★ ★ ★